

حول معادلات حساب مواعيد تولد الأهلّة

الشيخ جعفر المهاجر

منذ زمن بعيد جداً، يُقاس بالقرون، أخذ الناس ينتظرون إلى الخلف السنوي على بدء شهر الصيام وختامه، على أنه من تقاليد حياتهم الدينية. وساهم الفرز المذهبي في تحضيرهم لحفلة السجّال السنوية. التي اتخذت منابع تقليدية. تنتقل مع تحول مركز الثقل السياسي. لكن جمهورها هو هو في كل حال. جرى هذه السنة أمر جديد، كسر التقاليد الحميمة. لذلك فإنه ترك الناس في أمر مريح. وما ذلك إلا لأنه أخرج السجّال من حدوده المذهبية مخترقاً أسوارها العالمية، وقذف بها إلى مجال مختلف تمام الاختلاف من حيث المقاييس التي يراها أجدراً بالاعتقاد وأبعد عن الخطأ. وبنى عامل فرز جديد. من شأنه إذ يصل إلى نهايته المرجوة ان يحرر المسألة من العامل السياسي ويعيدها إلى موقعها الصحيح. أو فلنأمل ذلك على الأقل.

للمرة الأولى يحدث سجّال عام خارج مقولة (رؤي × لم ير)، ليدور عاى مفهوم (جديد) أو موضوعة (جديدة) هو حجية أو عدم حجية رأي الفلكي في هذا، بوصفه موضوعة متجاوزة للرؤية البصرية ووسائل إثباتها.

والتحفظ الذي يلاحظه القارئ بوضع وصف المفهوم أو الموضوعة بـ (الجديد) و (الجديدة) بين معقوفتين يرجع إلى أنه ليس جديداً على الدوائر الفقهية المتخصصة وأن بدا للناس كذلك.

طبعاً كنا نتمنى ككل المعنيين لو أن الأمر بدأ بحوار نقدي حول أولويات المسألة. لا شك في أن جميع أطرافه الأساسيين يملكون أدواته العلمية والأخلاقية. ويملكون بالتالي القدرة على الوصول به في نهاية المطاف.

من الواضح أن هذا الوضع المستجد بما فيه من أقلية أعلنت قبولها بالأطروحة المتقدمة وأكثرية مهياة لقبول الأطروحة نفسها، هو ثمرة من ثمرات حالة الوعي الإسلامي المتصاعد وانتشار وسائل الاتصال ونقل المعلومات. وذلك درس حقيق بأن يُقرأ ويُستعاد.

هذا السياق من التفكير يقودنا إلى فهم غير تقليدي للحديث المجمع على صحته لدى كل المذاهب (صُم لروية الهلال وافطر لرويته) (تهذيب الأحكام: 4 / 157. رقم / 436). إنه نص ذو حدين يتجه إلى ما دون الرؤية. ها هو ينفي عنه الحجية. وهو مقلق ونهائي، وآخر يتجه إلى الرؤية فيمنحها الحجية ولكنه بالتأكيد مفتوح على ما هو أعلى من مستواها. وأقرب إلى تحصيل العلم وأبعد عن الخطأ. لأنه في نهاية المطاف يشترع وسيلة وطريقاً. كانت في ظرف صدوره الأقرب إلى الصحة والأبعد عن الخطأ. ومن التمثّل أن يُقال إنه يحضر الحجية في وسيلة لا يتعداها. وذلك أمر يدرکه كل من له معرفة كافية بأسرار العربية ودقائقها. المهم وما نريد التأكيد عليه أن من يذهب إلى أن الأرصاد الفلكية حجة شرعية لا يتنكر للحديث بل ينطلق من منظوره ومنهجيته ليحقق غايته بشكل أوفى وما من فقيه يكدح إلى غرض أسمى.

منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، عملت سلسلة من الفلكيين المسلمين الكبار على وضع معادلات ترمي إلى حساب مواعيد تولد الأهلّة. الأمر الذي أصبح اليوم في غاية البساطة والدقة ويؤدي إلى نتائج يقينية. لكن المغزى في مبادرات أولئك الفلكيين أن الفكرة ليست جديدة على

المسلمين وحضارتهم. على الرغم من أنها عجزت عن الوصول إلى النسج الثقافي نفسه والنظرة السائدة في الدوائر الثقافية الرسمية التي تصنّف علم الفلك في ما كان يُسمى (علوم الأوائل). التي نُظر إليها دائماً بارتياب شديد. فضلاً عن العجز عن التمييز بينه وبين التنجيم الذي يعمل على كشف مستقبل الناس من النظر في أحوال الكواكب.

من بين أولئك الفلكيين الكبار ننوّه تنويهاً خاصاً بجهود فقيهه وفلكي شهير. منح عناية خاصة للأطروحة الفلكية وجادل عنها وسعى إلى إثبات شرعيتها. مستفيداً من معرفته الجَمّة بالفقه وبعلم الفلك معاً. ذلك هو محمد بن الحسين الجباعي الشهير ببهاء الدين العاملي (توفي 1030هـ/ 1621م) وها أنا أثبت فيما يلي نصاً مختاراً من كتابه (الجل المتين / 194 - 95) المطبوع فب إيران سنة 1319 هجرية. وهو نص من نصوص كثيرة له في المعنى نفسه لكن هذا في ما أرى أوجزها وأوضحها.

قال: (وأما قولك إن شيئاً من كلامهم (يعني علماء الهيئة= الفلك) لا يفيد شيء من كلامهم علماً ولا ظناً وقد ثبت أكثره بالدلائل الهندسية.

وأما قولك إن لا وثوق لك بإسلامهم فضلاً عن عدالتهم فكلام عار عن حلة السداد. إذ اليقين غير شرط. ورجوع الفقهاء فيما يحتاجون إليه من كل فن إلى علماء ذلك الفن، وتعويلهم على قواعدهم إذا لم تكن مخالفة لقوانين الشرع شائع ذائع معروف في ما بينهم. كرجوعهم في مسائل النحو إلى النحاة وفي مسائل اللغة إلى اللغويين وفي مسائل الطب إلى الأطباء. وفي مسائل الحساب والجبر والمقابلة والخطأين وما شاكلها إلى أهل الحساب. من غير بحث في عدالهم وفسقهم. بل يأخذون عنهم تلك مسلّمة ويعلمون بها من دون نظر في دلائلهم التي أدّتهم إليها. لحصول الظن الغالب بأن الجرم الغفير من الحذاق في صناعة من الصناعات إذا اتفقت كلمتهم على شيء مما يتعلق بتلك الصناعة فهو أبعد عن الخطأ).

إنه نص في غنى عن شرح وتعليق. مغزاة الكبير أن واحداً من أعظم الفقهاء بل عالم فريد من غزارة علمه، ما يزال يسبقنا بأربعة قرون حتى الآن.